تراجيديا الكتابة السردية عند ياسمينة صالح

قراءة في رواية "وطن من زجاج"

د. ميسوم عبد القادر

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف

لئن كانت النصوص التي تكتبها المرأة مندرجة في حيز خلافي تسمية وخصائص وأبعادا، فإن مقاربتها بآليات محددة يمكن أن تكون مغامرة في نطاق الميز الجنسي، ونقصد هنا - ما يتبادر إلى الذهن- تصنيف النص بالاحتكام إلى جنس مبدعه، ونرى أنه من البديهي أن نسلم بأن لا وجود لنص مؤنث أو مذكر لأن فعل الكتابة ينزع إلى امتلاك صفة الاختلاف لا الميز، وعندما تضعنا الباحثة مثل زهرة الجلاصي في مواجهة مبحث الكتابة الصادرة عن صوت أنثوي لتصرح "بأن ثمة أدب جيد وأدب رديء دون التساؤل إن كانت له هرمونات أنثوية أم ذكورية، ففي النهاية القضية هي قضية إبداع قبل كل شيء"[1]

إن مسألة الإبداع حقا لا تضع حدودا فاصلة بين قطب المذكر والمؤنث، لكن كشف الغطاء عن أسلوب الكتابة يعطينا الفارق بين بصمات الأنوثة والذكورة ولقد قالت (**آني لوكليرك**) "سيكون من الخسارة الفادحة أن تكتب النسوة بأسلوب الرجال"[2] وربما رغبة المرأة في التنكر تعود إلى وجود مانع خارجي هو حرم المجتمع

1- زهرة الجلاصي. النص المؤنث. سراس للنشر، تونس، 2000، ص:09

2- كارمن بستاني. الرواية النسوية الفرنسية. مجلة كتابات معاصرة، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع 24، 1985، ص: 122

الذكوري. فهل تكتب "ياسمينة صالح" بصوت مسموع لتعيد ترتيب القيم الأنثوية الضاربة في عمق الانتماءات الاجتماعية والثقافية؟ هذا ما سنتناوله في هذه المداخلة مضطرين إلى تنسم عبق التأنيث من اعتبارات خارجة عن النص.

إن أبرز صورة ظهرت بها الأنثى في المخيال العربي في زمن ما قبل الكتابة هي صورة (شهرزاد) في ألف ليلة وليلة، حيث أحدثت نقلة نوعية في وسط المجتمع وراحت تدافع عن بني جنسها من خلال حيلة السرد وسلاح الكلمة يقول عبد الله الغذامي في مصنفه" المرأة واللغة : "جاءت شهرزاد لتقاوم الرجل بسلاح اللغة فحولته إلى مستمع وهي مبدعة وأدخلته في لعبة المجاز وشبكته في نص مفتوح، نص تقوم الحبكة فيه على الانتشار والتداخل والتبدل والتنوع، وتاه الرجل في هذا السحر الجديد"[1]. وبذا تكون الكتابة في حدود الجنس الروائي حيلة أو زينة رتبتها المرأة لتعلن القطيعة عن قطبها المذكر وتثبت حقها في التمايز من باب الاختلاف لا من جهة المفاضلة.

ثورة الكتابة

في السبعينات والثمانينات من القرن 20 اتسع نطاق الكتابة النسوية والروائية بوجه خاص وانهمكت المرأة العربية في كتابة الأحداث التاريخية لبلادها وشعبها تخيليا وكان أمرا مستحدثا بالنسبة لها، إذ كشفت عن الظلال الشفافة للحياة الاجتماعية والسياسية في العالم العربي"والحقيقة أن روايات (حميدة نعنع) و(حنان الشيخ) و(هدى بركات) و(إيميل نصر الله) و(أحلام مستغانمي) تبدأ مرحلة جديدة في الروايات العربية التي تكتبها نساء"[2]، ولم تعد اهتمامات المرأة الكاتبة تقتصر على محاكاة الأشكال الأدبية السائدة والمهيمنة بل تجاوزتها إلى مرحلة تمرد المرأة على الواقع

1- عبد الله محمد الغذامي. المرأة واللغة. المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1996، ص: 58

2- بثينة شعبان. مئة عام من الرواية النسائية العربية. دار الآداب. بيروت. ط1 1999 ص: 163.

الثقافي القائم كما كان الحال مع الكاتبة اللبنانية "غادة السمان" التي كرست مفهوم "الهوية الجنسانية" في نصوصها الإبداعية.

الواضح أن "ياسمينة صالح" من خلال نصوصها القصصية والروائية لا ترغب بصورة تلقائية في قولبة كتابتها، والمتأمل لأسلوب الكتابة في "بحر الصمت"[1] يجد ذلك التقاطع الصارخ الذي يمكن طرحه في تساؤل عميق هو: هل خرج هذا النص من خيال رجل أم من خيال امرأة ؟ هكذا تبدو مشكلة الكتابة في هذا الوجه أزمة إبداع محملة بأعباء موروث ثقافي كامل قبل أن تكون مسألة تمايز. ولكن بما أن تحليلي سيتركز على تفاصيل وجزئيات حسب قواعد فن الحكي، أرى لزاما علي أن أنقل بعض الفقرات وألخص أخرى على الرغم من شعوري بمساوئ التلخيص.

وتبرز في الساحة الإبداعية الروائية الجزائرية "ياسمينة صالح" بثلاثة أعمال متفاوتة في الزمن (بحر الصمت2001)، (أحزان امرأة2002)، (وطن من زجاج2006) ثلاثية تحكي فيها قصة الثورة والوطن الجزائر، هذا البلد الذي ضحى من أجله الكثير تصوره لنا الكاتبة وهو ينتقل من زمن التضحية والوحدة إلى زمن الفوضى بإيقاع سردي متسارع عمودي وحاد ينذر بتهدم كيان الوطن لا على أرض الواقع المادي فحسب بل في مجالات الأبنية الثقافية أيضا. وقبل عرض "المحطات السردية" لنص "وطن من زجاج" أجد من الملائم التوقف عند هذا النص الموازي.

قديما قيل الكتاب يقرأ من عنوانه وقد كشف النقد الحديث "منذ ثلاثة عقود عن حقل نقدي استراتيجي جديد يتصل اتصالا وثيقا بعلوم النص ألا وهو علم العنوان أو العنونة "Titrologie"[2] فالعنوان واجهة الكتاب وهو الكثافة النصية

1- ياسمينة صالح. بحر الصمت. منشورات الاختلاف. الجزائر ط1. 2000.

1- الطيب بودربالة. قراءة في كتاب "سيمياء العنوان" لبسام قطوس. الملتقى الوطني الثاني. السيمياء والنص الأدبي. جامعة بسكرة. دار الهدى. الجزائر. 2002. ص: 23

المختزلة يصعب في بعض الأحيان فك رموزها واستجلاء دلالاتها. فكيف يقرأ إذن نسق هذه العتبة النصية؟

وطن من زجاج: (العنوان)

يعطي انطباعا أوليا ينزع نحو مفهوم الانكسار والتشظي، فالقارئ في تلقيه لهذا العنوان يفهم أن هذا الوطن شفاف لا يحجب أحداثه بل يعرضها وهي تتشكل في مشاهد لتكشف المواقف والأغراض، وتضم فضاءات ومرئيات تحمل علاقة شبه ما بالواقع.

كتابة الثورة: (مضمون الرواية:)

أحداث الرواية تدور في عالم الذكريات الذي يسافر فيه الراوي ليحكي معاناته خلال حرب التحرير الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي، حيث من هناك بدأ القتل المخطط له جيداً لتصفية المتعاونين مع المستعمِر الفرنسي، فبطل الرواية يلخص لنا مرحلة من التناقضات العاصفة داخل دائرة الذاكرة ويحكي انطلاقا من حالة نكبات ومحن أشبه ما تكون برحلة إلى الوراء لصنع تراجيديا وطن مجروح، يقول الراوي بصوت مسموع وكأنه يقدم قضية أكثر مما يقدم نصا روائيا" كيف نحب وطنا يكرهنا"[1] وهذا من علامات النص التي تتوالد منها الصفحات مصورة الصراع بين حب الوطن وكره ما يحدث للمواطن فيه، حتى يصبح الفرد غريباً في وطنه، والرواية هي حكاية رجل مقاتل "عمي العربي" الذي ناضل في حرب التحرير وحصل على وسام العاهة تمثل في ساق مبتورة[2]، فتصبح هذه الشخصية هي الذاكرة التي تجسد الحكاية عن واقع متردٍ على جميع المستويات، ويلتقي الراوي هذه الشخصية في مقهى وتتوطد عُرى الصداقة

1- ياسمينة صالح. وطن من زجاج. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006.ص:07

1- نشير هنا أن الروائية "ياسمينة صالح" تصنع من حادثة (بتر الساق) نواة الحكي وهي في هذه التقنية تحاكي الروائية "أحلام مستغانمي" التي هي الأخرى جعلت نسق روايتها (ذاكرة الجسد) ينبعث من حادثة "بتر الذراع".

بينهما فنعرف الكثير من تفاصيل العمليات الفدائية التي نفذها الوطني (عمي العربي) ضد الخونة، يقول الراوي: "هكذا يحكي عمي العربي عن تاريخه وعن ذاكرته المعطوبة التي يشبهها بذاكرة الوطن.. يحكي فأجدني غير قادر على إيقافه أتظاهر بالنظر إلى نقطة بعيدة لأجدني أركز على ما يقوله وحين يصمت يسقط برد غريب على المكان"[1] هذا النص ليس في الواقع سوى قناع لما هو أبعد من لفظه وأعمق من لغته المعلنة، تتضافر في حبكه رسائل عديدة تتعمق في ثنايا السطور وتنادي المتلقي لقراءتها وتشربها، بكتابة متشظية، وجمل متسارعة في فقرات قصيرة، وتوزيع للسطور تكاد تحاذي قصيدة النثر.

في جلسات المقهى منطلقات وجد الراوي نفسه مع "عمي العربي" و"الرشيد" وجها لوجه مع هاجس الزمن الذي يتكرر، ويزج بنا النص في متاهة الوطن الذي تخلص من مستعمر تفنن في صنع أقنعة ليستر بها معاني الاعتداء باسم الحضارة لكن بعد الاستقلال دخل الوطن في دوامة التخريب والاغتيال والقمع والبيروقراطية، هذه الرؤية السوداوية كانت نتيجة (زمن القرف/ والاغتيالات والسياسة الهوجاء/....) في وطن مدجج بالفرح وإنجازات الثوار.

وفي اعتقادي أن رواية "وطن من زجاج" هي مشهد كبير يصور قناعات المثقف الذي يرفض أن يتحول الوطن إلى جحيم ينتج الموت الشامل للجميع ويوجد في كل مكان مقنعا أو صريحا، ولنتأمل هذا المقطع "كان الموت رهيبا وهو يأتي محملا بالكلمات الجاهزة. قال عنه زميله: لقد مات في اشتباكات حين كان يطارد جماعة مسلحة.. كما لو كان يريد أن يثبت لنفسه شيئا.... كمن اكتشف هباء الكون، ولا جدوى التفاصيل التي يتقاتل الناس عليها، باسمها أو لأجلها."[2]

1- ياسمينة صالح. وطن من زجاج، الرواية، ص:23.

2- المصدر نفسه، ص: 07

سيل جارف من الأمثلة والمشاهد وطقوس الجنائز والدفن ونماذج من الجزع تتناسل في هذا النص الذي تشكلت مسوغاته الأولى في نص "بحر الصمت" وحتى لا يبقى هذا البحر صامتا. انتقلت ياسمينة صالح إلى الموجة الهوجاء لفضح الصراع الدائر بين جيل الثورة وجيل الاستقلال، إنه كابوس ينذر بالضياع واليأس، من هذا المنظور يسعى نص وطن من زجاج إلى محاكاة الواقع (الخيبة) حيث القتل والجريمة والكراهية والصراع النفسي والإحساس بوجود خطأ في العالم ومحاولات لفهم العالم المعاصر وطرح أزمة المواطن الجزائري في مظهرين:

– **مظهر ذاتي**: يتجلى في أزمة الهوية الوطنية والإحساس بالاغتراب النفسي.

– **ومظهر موضوعي**: يتجلى في خيبة سياسية معقدة يثيرها بطل الرواية وهو يصور الوطن في قمة الانهيار والانكسار أمام أعين أبنائه وهم يغرقون في الحزن والدموع والهجرة والمنفى واليتم.

(لاكامورا) الذاكرة المعطوبة:

إن الإحباط النفسي ترشح به دلالة تسمية بطل الرواية (لاكامورا) ومن ثمة فإن هذا الاسم يستغل كاستباق prolepse يحيل على التشاؤم والتطير، كذلك مشكلة الفقر ورأس المال بالإضافة إلى قضية الوطن هي أفكار مركزية تتسلل إلى إيقاع النص منذ البداية لتحدد زاوية التبئير[1] وتلقي ضوءا باهر الإنسانية على براءة صبي ترفض فطرته الاستغلال الحضاري والتاريخي واليومي والمستقبلي.

ولن يتسع لنا المقام هنا إلا لبعض الاقتباسات– هي انتقائية بالضرورة– التي رسمت شخصية الطفل وأعطتها وضعا متميزا فمن أحراش الريف كانت نقطة بداية الانكسارات: إقطاعية الجد الذي يرمز إلى الاستبداد ثم هروب الأب الذي يرمز إلى

1– للتوسع في هذه النقطة ينظر: سعيد يقطين. تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير. المركز الثقافي العربي، بيروت، ص:265

رفض الاضطهاد ... إلى دفء العمة المشلولة التي ترمز إلى الحسرة فتموت بحسرتها وأحلامها.. إلى وصية معلم غادر القرية مطرودا والذي بدوره هو صورة المثقف، لأنه عارض رئيس البلدية وجده الإقطاعي ليجد نفسه بائعا في متجر ثم حمالا في ميناء ثم ينتهي إلى مرض قاتل ... وتلك الصغيرة التي غادرت مع أبيها المعلم وتركت عقدها بين يديه، حفرت هي الأخرى ذاكرته المعطوبة. (لاكامورا) .. كان منذ البداية متورطا في جلب الآخرين نحو الغرق، والنجاة بنفسه كالرمال المتحركة ... إلى أن أصبح صحافيا ينفث عقده اليومية على الورق ليتعقب الحقيقة، إنه نذير شؤم ففي كل مرة يتلقى أصدقاؤه وأحباؤه الرصاصة التي كانت تقصده ...صحافي يمشي بكفن في جنازة الآخرين ، ويحضر طقوس تأبين تحضره –أيضا – وجوه رسمية رغبة في التقاط صورة بجانب شهيد الواجب ... وفي الأخير .. عندما تحرر من خوفه وخرج إلى الشارع اكتشف أن لا أحد كان ينوي قتله بدليل أنه يقطع شوارع المدينة مكشوفا دون أن تصيبه رصاصة.

فهذه الأحداث تبتعد عن المصادفة، كما أنها تطرح الواقع الجزائري كله في موضع الشجب، إن الواقع بأكمله مدان تجاه صرخة هذه الأنثى التي تستعير لسان الذكر يقول الراوي: "بدت لي الأمور كلها تجري في دار جنونية، كنت أعايش الهباء بمزيد من الهباء غير قادر على فعل شيء أمام الناس الذين توقفوا عن العمل في الأرض ... كنت وحيدا فجأة وقد رحل الذين أحبهم، وحيدا أتأمل في لحظات الحزن والخوف والفجيعة ذلك العقد الصغير الذي كنت أدسه في جيبي. كنت أفكر في المعلم الذي رحل دونما رجعة، وفي ذلك الحضن الذي كان يلم مواجعي في لحظات من الصدق الجميل.. كنت وحيدا جدا وقتها"[1] ولعلنا هنا نستدعي بعض من الخصوصيات التي تلتصق بالتركيبة الأنثوية وتتسلل حتى إلى الكتابة "لكي تتخلص من

1- ياسمينة صالح. وطن من زجاج، الرواية، ص:44

قناعها وتقتحم فضاء الحكاية وتترك المجال لتداعياتها الذاتية"[1] لتثبت هويتها من خلال فعل الكتابة.

ويبدو أن العزلة السيكولوجية هي اللون الغريب والشاحب الذي يقف وراء معادلة الغموض التي طرفها عدة أسئلة تتعلق بالوجود والكينونة من مثل: من أنا ؟! من أنا حقا؟! وكلها مطروحة في ثنايا النص (ص:27/28/39/45/47/48) واللافت أن السر ينطلق من امتلاك الشخصية للسلطة السردية التي تمنحها قدرة تأويل الأحداث وتفسيرها في شكل تعليق أو حكم أو سخرية إلى غير ذلك من الإمكانات السردية والأسلوبية التي تساعدها على اتخاذ موقف إزاء عناصر العالم المتخيل. ونستدل بما ذكرته "كارمن بستاني" عن الرواية النسوية في ما يلي:

- إن رغبة المرأة في الكتابة هي في الحقيقة أساسية كرغبتها في الإنجاب.
- ليس للرجل والمرأة الثقافة نفسها ولا التجربة ذاتها فكيف يتفقان في الأسلوب نفسه.
- يكتب الرجل عن المرأة استنادا إلى تخيلاته، ويبقى في النهاية عاجزا عن تصوير مكنوناتها ومشاعرها.
- لقد تحدث الرجال في كتاباتهم عن القيم الأنثوية طبقا للمعادلة- المعضلة: الأم/ الخادمة/ العذراء/ المومس.
- كانت المرأة الكاتبة بحاجة دائما إلى اللجوء لأسماء مستعارة لكي تنشر كتاباتها.[2]

في الحقيقة يبدو اختيار المرأة لمواضيعها مستندا دائما إلى خلفية واحدة وهي "العزلة" التي تعد جزءا لا يتجزأ من طبيعة المرأة وتركيبها وخوفها، فردة الفعل في

1- زهرة الجلاصي. النص المؤنث مرجع سابق ، ص:109

2- كارمن بستاني. الرواية النسوية الفرنسية مرجع سابق. ص: 123

الكتابة مهمة مزدوجة : هي التنفيس عن هذه المخاوف وشغل الوعي بموضوع الحب الذي يصبح بديلا عن جحيم، لذلك يصبح "لاكامورا" نذير شؤم وهو الاسم الذي نعت به أهل القرية ذلك الصبي/ وجه الراوي من باب التشاؤم والتطير، يقول الراوي: " كنت واعيا منذ البداية أنني سيئ الحظ بموجب ما أخلفه من شرور أغلبها لم تكن بيدي ، كنت ضحيتها أيضا، تلك الشرور التي كانت تبيح للناس التطير مني، لأني " لاكامورا" وليس لأني " وجه الشر" بل لأني غير قابل للفرح تماما، ولأن الخيبة تسكن وجداني منذ بداية الأرض"[1] أليس هذا المقتبس السردي يعبر عن قطيعة وجدانية تسود بياض الصفحات التي تلي وقد كان هذا بالفعل، كما كان مفروضا أن يكون فمنذ الصفحة (51) إلى نهاية الرواية لا يسرد الراوي حياته، بل يقارنها مع حقبات من التاريخ الجزائري بين جيلين من الثورة والمجازر كانت تضعضع المشاهد و الأحداث.

فنحن هنا على موعد مع اللغة الواصفة والنعوت الواسمة، وفي هذا الصدد أجدني مضطرا إلى الاستشهاد بما ذكره "عبد السلام المسدي" فيقول: "بعد بزوغ طلائع الألفية الثالثة، كان كل شيء ينذر بسقوط الأقنعة هنا وهناك... أقنعة الإبداع والفن كما أقنعة الفكر والثقافة، بل أقنعة الجنون الروائي تماما كما أقنعة الجنون السياسي"[2] وأغلب الدراسات[3] التي سلطت الضوء على هذا النص انتهت إلى بنتيجة واحدة هي أن (وطن من زجاج) رواية العنف السياسي و الحب بين أحضان

2- ياسمينة صالح. وطن من زجاج. الرواية، ص: 39

1- عبد السلام المسدي. السرد الروائي والألغام السياسية، جريدة الرياض، اليومية، السنة، 39، عدد 12865، السعودية، تاريخ: 2003/11/11.

2- على سبيل المثال لا الحصر: دراسة الباحث عدنان الظاهر. انتصار لاكامورا. رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح.موقع الحوار (**www.Ahewar.org**)

الإرهاب، شخصياتها فئات بسيطة مثقفة ومعزولة، تطرح حاجة الإنسان للتخلص من الظلم ومأساة المثقف المنحدر من الطبقات الوسطى المتمسكة بمبادئها.

فغادة السمان مثلا:تمكنت من تجسيد التطاحن الطائفي في لبنان سرديا من خلال نصها "كوابيس بيروت" عام 1975. واستطاعت أن ترى الواقع ينقض وينهار ويتفتت فعمدت إلى إبرامه على صورة كوابيس تضم الجثث والأحلام وتحللات الواقع. وفي اعتقادنا أن ياسمينة صالح لا تشذ في نصها "وطن من زجاج" وهي في ذلك – دون أن تقصد- تخرج من صمتها الجنائزي وترجح احتمالات الموت على الحياة رجحانا عظيما. "إنها كارثة، ما يجري كارثة حقيقية، فليس أشد وطأة على المرء من خسارة وطن!! نشعر أننا يتامى حقيقيين."[1] لا ننكر في مثل هذا الحال أهمية التركيز على هذا المقتطف الذي ينم عن عمق الجرح في جسد البشر والمكان.

نزيف الذاكرة (الوطن):

تستغرق الكاتبة في أمور اللغة والهوية والاستشهاد وإعادة تقييم شاملة وتتساءل عن مصير القيم الموروثة مع هذا الجيل الذي أعقب الاستقلال، وتبدو مهمة الرسالة الأدبية واضحة في النص اعتمادا على السياسي الذي صادفناه بغير مفرداته السياسية الجافة ويصرح الراوي على لسان إحدى الشخصيات فيقول: "كلما اعتقدت أنني نحت في النسيان يحضرني وجه الرشيد ليسألني: من أنت حقا يا صاحبي؟ من أنا حقا يا الرشيد؟ وكم من الأعوام عشت لأبدو هرما من الداخل إلى هذا الحد؟ عشت أبحث عني في تفاصيل مدينة اكتشفت أنها لا تعنيني تماما"[2]. في مثل هذا الموقف الذي يجسد حالة التمزق- إن صح التعبير- تنقسم الذات إلى

1 - ياسمينة صالح. وطن من زجاج. الرواية، ص:51

2- المصدر نفسه ص: 69

نقيضين وموقفين متصارعين لا توحدهما إلا الأسئلة، ففلسفة الرواية تتلخص في بحث دءوب عن سعادة ضائعة، كما عن الأسباب العميقة التي تؤدي إلى بؤس الوحدة. فثمة خيال يذوب مع الشباب الزائل ورهانات الماضي وتحديات المستقبل والشك يرتقي إلى مستوى الضرورة الأساسية للوصول إلى الحقيقة الواقعية، والراوي لايعنيه من كل هذا إلا النزيف في الكتابة سواد على بياض في ذاكرة تحيط بها الثقوب وهذا تعليقه في خاتمة الرواية:" كنت أبكي غموض المرحلة، أبكي النذير الذي رحل قبلا، وأبكي كريمو وكل جيلي الذي عاش يتيما قبل موته... أبكي جيلا آخر يولد في نفس الملجأ يولد يتيما بلا أب ولا أم ولا وطن ولا حلم"[1] وهذا ما بدا طافحا على النص من مفرداته، فكل الأحداث ملونة بلون واحد قاتم هو الموت، الموت الشامل الذي يغمر كل شيء لأنه حين تصير الحياة هباء تصير الحواس أدوات للتعذيب. برواية "وطن من زجاج" هل تنعي "ياسمينة صالح" الوطن وتندد تنديدا نبيلا وعالي الصوت بكل ما يولد الاستبداد الذي جعل من الوطن مستنقعا؟.

2- المصدر نفسه، ص: 170